

أثر المرجعية الحديثية في المصطلح السيبويهي

ذ. عبد العزيز أحمد^(١)

جاء في الكليات لأبي البقاء أن الحديث «اسم من التحديث و هو الإخبطر، ثم سمي به قول أو فعل، أو تقرير نسب إلى النبي عليه الصلاة و السلام»⁽¹⁾. وقد ظل محمولاً في الصدور إلى أن جاءت مرحلة التدوين الشامل في مفتح القرن الثاني الهجري على أحسن تقدير فدون «بالطريقة العلمية والنقد الأمين»⁽²⁾، وكان ذلك المفتاح لظهور أمهات الحديث الجامعة بالأسانيد الموثقة كموطأ مالك ومسنند أحمد، ثم ظهرت بعد ذلك الكتب الستة، ثم جاءت كتب الاستدراك طوراً فطوراً.

لقد تضمنت تلك المصادر، بالإضافة إلى متون الحديث، العلوم الخاصة بتلك المتون من حيث روايتها ودرايتها من أجل رفع التزييف والوضع والتدليس الذي أوشك أن يضر بها.

وعلى شاكلة الحديث النبوي مرت اللغة العربية بمراحل، إلى أن جاء الإسلام فاعتراها تغير بسبب ما طرأ عليها من اللحن على إثر اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، ثم تعرضت كما تعرض الحديث النبوي إلى «موجة من التزييف والوضع والتدليس أوشكت أن تضر بمبتها»⁽³⁾، وهي أخطر من مرحلة اللحن حسب بعض الدارسين، ولقد كانت للوضع في اللغة «عوامل أوجدتها تقلبات الظروف والحياة كتلك التي كانت وراء الوضع في الحديث النبوي، بل إن بعضهما لما يشترك في الأمرين معاً، وكان اللغة والحديث امتزجا امتزاجاً جعل الدواعي إلى الوضع في

^(١) - أستاذ بكلية الآداب، ظهر المهرز، فاس.

1- الكليات لأبي البقاء الكفوي ومقاييس اللغة لابن فارس مادة (حدث).

2- الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية للدكتور محمد ضاري حمادي، ص 23، 24. مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1982).

3- نفسه، ص 189.

أحدهما تتكرر في الآخر، فانتقلت الروح التي سرت في رجال الحديث لتسري في رجال اللغة وبنفس طريقتهم ومنهجهم»⁽⁴⁾، ونظرا للعلاقة التكاملية بين الحديث واللغة فقد تشابهت آليات التحقيق والضبط بين اللغة والحديث «لأن باللغة تفسيره وتأويله فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله»⁽⁵⁾. ولا نبالغ إذا قلنا إن المنهج الحداثي صار منهجا عاما في النقد والتمحيص، ولذلك «لم تكن الحاجة إلى توثيق الرواية لدى اللغويين بأقل مما هي لدى الفقهاء والمحدثين»⁽⁶⁾.

لقد نشط اللغويون ابتغاء إرساء الضوابط المنهجية التي يتوسل بها لنقد المتن اللغوي وتمييز الصحيح من الموضوع، فكانوا منسجمين مع الجو العام الذي كانوا يعيشونه «في البيئة الإسلامية والذي كان لأهل الحديث فيه مكان أي مكان، والذي لاشك فيه عندنا أن اللغويين وإن كانوا قد سبقوا إلى نقد متن اللغة فإنهم تأثروا على أقل تقدير بعدد من المصطلحات التي عرفناها عند أصحاب الحديث»⁽⁷⁾، مما يفسر أن أصل التفكير كان واحدا عند الفريقين «فكما اتجه المحدثون إلى الحديث يجمعونه والفقهاء إلى الحديث وفتاوى الصحابة والتابعين يدونونها، اتجه قوم إلى اللغة يجمعونها وكانت مهمتهم جمع الكلمات التي نطق بها العرب وتحديد معانيها فرحل العلماء إلى البادية بمدادهم وصحفهم يسمعون ويكتبون»⁽⁸⁾، فتحكمت في رواية ما سمع وما

4- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي، نقلا عن الحديث النبوي الشرف وأثره، ص193، وانظر مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب للدكتور شرف الدين علي الراجحي ص191، 194 و202، 216 دار النهضة العربية، بيروت ط1 (1983).

5- الاقتراح في علم أصول النحو لجلال الدين السيوطي ص54، ت محمد حسن اسماعيل الشافعي دار الكتب العلمية، بيروت ط1 (1998).

6- دراسات لغوية للدكتور عبد الصبور شاهين، ص24، المطبعة العالية، القاهرة (1976).

7- مصطلح الحديث وأثره، ص201، 202.

8- الحديث النبوي الشريف وأثره، ص247، 248.

كتب ضوابط المحدثين، ولم يكن «المدار في الاعتماد على كثرة الجمع، بل على شروط الصحة»⁽⁹⁾.

وإذا كان اللغويون قد اتبعوا في جمع اللغة وروايتها نفس المنهجية التي كانت قد اتبعت في جمع الحديث وروايته فلا يعني ذلك سلامة التطبيق العملي لعمليات الجمع اللغوي من هفوات وثغرات بعضها هين وبعضها يمس جوهر الموضوع⁽¹⁰⁾.

1 - وجه الالتقاء والاختلاف بين الحديث واللغة

يلتقي الحديث واللغة في مسألة الجمع والتدوين بالدرجة الأولى وهي مسألة نقلية احتاجت إلى مجموعة من الضوابط المنهجية التي سبق بها علماء الحديث واستقاها بعد ذلك اللغويون الذين عملوا على جمعها وتنظيمها، وكان الرعيل الأول منهم يحتك مع الأعراب مباشرة، ثم جاء رعييل آخر اقتصرته جهوده على تنظيم ما جمع وترتيبه وتصنيفه في أشكال مختلفة ثم التقعيد له، وكان كتاب سيويه «أول وضع شامل لقواعد العربية، لم تغير الأجيال المتأخرة شيئاً من أسسه وقواعده، وإن وسعته توسيعاً مختلف النواحي، أو غيرت من صورته وقوالبه، وكتاب سيويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوي عند عرب البادية دون استثناء»⁽¹¹⁾.

لقد أخذ اللغويون من المحدثين ما هم بحاجة إليه من طرق التحمل مما لا غنى للرواية اللغوية عنه دون الدخول في التفاصيل، وتبعاً لدرجة وثوقية هذه المتون المجموعة تم تصنيفها إلى أقسام عديدة من حيث المتن والسند اقتفاء بالمحدثين، واضعين إياها في سلم من الدرجات، ومن هذه الزاوية انتقلت منهجية المحدثين بزادها

9- المزهري في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي 77/1، دار الكتب العلمية، بيروت، فؤاد علي منصور، ط1 (1998).

10- الحديث النبوي الشريف، ص249.

11- العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك، ص60، ترجمة رمضان عبد النواب، مكتبة الخانجي مصر (1980).

الاصطلاحى إلى الدراسة اللغوية، إلا أن هذا ليس معناه توظيف هذه المصطلحات بالطريقة نفسها لدى المحدثين، وإنما أخضعها اللغويون لمقتضيات الممارسة اللغوية ولذا من الطبيعي أن تتغير مضامينها من سياقها العلمي السابق إلى السياق العلمي الجديد. وإذا كان كتاب سيويه أول كتاب جامع مدون وصل إلينا في الدراسة النحوية فكيف نبرز فيه أثر المرجعية الحديثة في جانبها الاصطلاحى خاصة؟

2 - سيويه ومصطلح الحديث

ترجع أهمية البحث في هذا الموضوع للثقل الذي يحضر به المصطلح ذو الخلفية الحديثة ضمن مصطلح الكتاب، فقد غطى مساحة كبيرة بالنظر إلى باقي المصطلحات مع درجة كبيرة في الورد، حيث ناهز الأربعين مصطلحا أغلبها مصطلحات ذات ضمام متعددة ومتنوعة مع كونها تتحرك مفهوما في دائرة مصادر الأدلة التي يستدل بها سيويه في سياق الاحتجاج للقواعد والتي لا تخرج على كل حال عن مصدرين أساسين: كلام الله تعالى (القرآن) وكلام العرب من شعر ونثر.

ذهب سيويه في أحكامه التصويبية مذهب المحدثين في تقصي جزئيات الألفاظ اللغوية وتفصيلا كما تقصيا يتميز بتبع كل واردة، حتى توفرت في الكتاب مادة اصطلاحية غزيرة تكون معجما خاصا بهذه الأحكام تتنوع مادته تنوع مصطلحات أصناف الحديث عند المحدثين، وان لم يصرح بمصطلحات المحدثين بأعيانها فقد صرح بها في المعنى، وهو موقف يتساق مع مواقف اللغويين والنحاة العرب الذين كانوا يحرصون على الاستفادة من مصطلح الحديث في «توثيق المادة اللغوية واضعين نصب أعينهم ارتباط هذه المادة بنصوص مقدسة، هي في الوقت نفسه إسناد لما تحوي من ألفاظ وتراكيب، فإذا عني الفقهاء من هذه النصوص بفحواها، كان اهتمام أهل اللغة بمحتواها من مادة اللغة»⁽¹²⁾.

3 - كيفية استفادة سيويه من مصطلح الحديث

يحق لنا أن نطرح السؤال عن كيفية استفادة سيويه من مصطلح الحديث خصوصا ونحن نعلم أن أول طلبه العلم كان الفقه والحديث⁽¹³⁾.

يستعمل سيويه مصطلحاته المستمدة أصلا من مصطلح الحديث في سياق الحكم على النصوص المستشهد بها للقاعدة حسب درجتها في المقبولية «ويبدو أن تلك الفائدة قد ظهرت حين توقف سيويه أمام بعض التراكيب، وحكم عليها بعدم الصحة نحويا، ولقد رأى أن تلك التراكيب تعادل الأحاديث من حيث إمكانية "الجرح والتعديل" لا من حيث "التركيب" فأطلق عليها العبارات والمصطلحات (...) كالصحة والكذب والاستقامة والإحالة.»⁽¹⁴⁾

وسنحاول اختيار نموذجين من مصطلح الكتاب يوافقان ما اعتدنااه لدى المحدثين في الصورة اللفظية على الأقل، وسيكون أحدهما من ألفاظ الرواية والآخر من ألفاظ الدراية.

1.3 - غريب شاذ

وهو كما يبدو مصطلح مركب تركيبيا وصفيا يحسن أن نرده إلى أفراده ثم نعيد تركيبه.

الغريب: هو في اللغة الغامض من الكلام ، وكلمة غريبة، وقد غربت (...).
وأغرب الرجل: جاء بشيء غريب (...). وقال الأصمعي: أغرب الرجل إغرابا : إذا جاء بأمر غريب⁽¹⁵⁾.

13- سيويه إمام النحاة في آثار الدارسين خلال اثني عشر قرنا، كوركيس عواد، ص10، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، بغداد (1978).

14- التراكيب غير الصحيحة نحويا في الكتاب لسيويه، دراسة لغوية، الدكتور محمد سليمان ياقوت ص39 دار المعرفة الجامعية اسكندرية، ط2 (1988).

15- لسان العرب لابن منظور (غرب).

وقد جاء في المعاجم الاصطلاحية ما يلي:

الغريب كل شيء فيما بين جنسه عديم النظر⁽¹⁶⁾. والغريب : المحتاج والمسافر والأمر النادر، والغرابية : الندرة. وعند أصحاب المعاني كون الكلمة وحشية أي غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال.⁽¹⁷⁾

الشاذ: جاء في اللسان: شذ عنه يشذ ويشذ شذوذا: انفرد عن الجمهور وندر، فهو شاذ، وأشذه غيره. ابن سيده: شذ الشيء يشذ ويشذ شذا وشذوذا: ندر عن جمهوره، وشذ هو يشذه لا غير، وأشذه (...)

وجاءوا شذاذا أي قللا. وشذ الرجل: اذا انفرد عن أصحابه ، وكذلك كل شيء منفرد فهو شاذ، وكلمة شاذة.⁽¹⁸⁾

وإذا أردنا تعريف هذا المركب "غريب شاذ" فان حاصله يكون بجمع مفرديه، فيصير الغريب الشاذ هو: الغامض من الكلام الذي معناه غير ظاهر، وكل شيء فيما بين جنسه عديم النظر، فهو الشاذ النادر المنفرد غير مأنوس الاستعمال، «سواء بالنظر إلى الأعراب الخالص أو بالنظر إلينا (...) ويرادفه الوحشي ويقابله المعتاد».⁽¹⁹⁾

ويمكن أن نخلص إلى أن الغريب والشاذ متقاربان في المعنى، ولعل هذا ما يفسر ورودهما مترادفين عند أهل الحديث في بعض الأحيان، يقول التهانوي: «اعلم أنه يطلق الغريب بمعنى الشاذ الذي ذكر في أقسام الطعن في الضبط».⁽²⁰⁾

16- الكليات، ص663، والمفردات في غريب القرآن-العين.

17- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، 3/383، دار الكتب العلمية بيروت، ط1(1998)، ومصطلحات جامع العلوم للأحمد تكري، ص645، 647، ت علي دحروج، مكتبة لبنان، ط1(1997) والتعريفات للجرجاني، باب العين.

18- لسان العرب(شذذ).

19- كشاف اصطلاحات الفنون، 3/383، باب العين، فصل الباء.

20- نفسه.

3.1.1. في اصطلاح المحدثين

الشاذ هو كما قال الشافعي «أن يروي الثقة حديثا يخالف ما روى الناس، وليس من ذلك أن يروي ما لم يروه غيره».

وقد حكاه الحافظ أبو يعلى الخليلي القزويني عن جماعة من الحجازيين أيضا، قال: والذي عليه حفاظ الحديث، أن الشاذ ما ليس له إلا إسناد واحد، يشذ به ثقة أو غير ثقة، فيتوقف فيما شذ به الثقة ولا يحتج به، ويرد ما شذ به غير الثقة»⁽²¹⁾.

أما الغريب فهو حديث يتفرد بروايته شخص واحد في أي موضع وقع التفرد من السند سواء أكان التفرد في أصل السند أي الموضع الذي يدور الإسناد عليه ويرجع إليه وهو طرفه الذي في الصحابي ويسمى غريبا مطلقا، أو في أثناء السند، ويسمى غريبا نسبيا، ويرادف الغريب الفرد (...) وكما ينقسم إلى مطلق ونسبي ينقسم إلى غريب متنا وإسنادا، وهو ما تفرد بروايته واحد، وإلى غريب إسنادا لا متنا وهو ما تفرد بروايته واحد عن صحابي ومتمه معروف عن جماعة من الصحابة بطريق آخر...⁽²²⁾.

وقد يرد المصطلحان مترادفين كما أشرنا سابقا⁽²³⁾، إلا أن ورودهما مركبين لاصطلاح واحد نادر الوجود.

3.1.2. في اصطلاح الكتاب

ورد مصطلح "غريب شاذ" في باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل⁽²⁴⁾، ويقصد بذلك ما يجتمع فيه بناء الاسم والصفة من الثلاثي.

21- الباعث الحديث لابن كثير، تح أحمد شاكر ص54، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1983).

22- كشاف اصطلاحات الفنون: 3/385، نفسه: 3/386.

23- نفسه: 3/386.

24- الكتاب: 4/245، محمد عبد السلام هارون، عالم الكتب بيروت (دون تاريخ).

عدد سيويه أوجه الأبنية المختلفة للصفة والاسم مستعملا في ذلك مجموعة من المصطلحات التي تبرز درجة وثوقية المستعمل من الكلام أو درجته من حيث الكثرة والقلة وهلم جرا. ينقل عن بعض العرب فلا يسميهم (256،254/4)، أو ينقل عن بعضهم دون إفصاح عن هذا البعض (270/4) أو ينسبه إلى قول ناس كثير (266/4) أو إلى شخص بعينه ينقل عن العرب "حدثنا أبو الخطاب عن العرب" (268/4)، أو يحكم بإطلاق فيقول: "وليس في الكلام شيء على كذا...". (257،255/4)... "ولا نعلم في الكلام كذا" (256،257،260،261،262/4)... "كثير" (258/4) أو "قليل في الكلام" (258،259،260،261،263،264/4)... "قليل جدا" (263/4). "ولم يكثر في كلامهم" (272/4).

فكل هذه أوصاف لدرجة حضور ما يجتمع فيه الاسم والصفة من الثلاثي أو ينفرد فيه الاسم دون الصفة أو العكس، إلى أن نصل معه إلى بناء (مفعول) وقد زيدت فيه الميم في أوله فيصفه بكونه "غريب شاذ"، يقول: «وقد جاء في الكلام (مفعول) وهو غريب شاذ، كأنهم جعلوا الميم بمتزلة الهمزة إذا كانت أولا فقالوا مفعول كما قالوا أفعال (...). وذلك قولهم معلق للمعلق»⁽²⁵⁾.

2.3. حدث

وهي في اللغة ما يحدث به المحدث تحديثا، ودوران مادة (حدث) لغويا على أصل واحد هو كون الشيء لم يكن، يقال: حدث أمر بعد أن لم يكن.⁽²⁶⁾

1.2.3. في اصطلاح المحدثين

وهي صيغة من صيغ النقل والتحمل عند المحدثين في الأصل، وتندرج ضمن القسم الأول في طرق النقل وهو السماع من لفظ الشيخ والذي «ينقسم إلى إملاء

25- نفسه: 273/4.

26- مقاييس اللغة: (حدث)

وتحديث من غير إملاء، وسواء أكان من حفظه أو من كتابه، وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجماهير»⁽²⁷⁾.

وردنا على من اعتبر عبارة "سمعت" أرفع من "حدثنا وحدثني" يرى ابن الصلاح أن "حدثنا" و"أخبرنا" أرفع من "سمعت" من جهة أخرى، وهي أنه ليس في "سمعت" دلالة على أن الشيخ رواه الحديث وخاطبه به، وفي "حدثنا" و"أخبرنا" دلالة على أنه خاطبه به ورواه له أو هو ممن فعل به ذلك⁽²⁸⁾.

2.2.3. في اصطلاح الكتاب

وردت لفظة "حَدَّثَ" في الكتاب مضافة إلى ضمير المتكلم المفرد "حدثني" وهي الأقل أو مضافة إلى ضمير جماعة المتكلمين "حدثنا" وهي الأكثر⁽²⁹⁾، وذلك بصيغتين متباينتين إحداهما عامة والأخرى خاصة، فالعامة فيها ضرب من التكنية ممثلة بوصف من أوصاف من يحدث عنهم دون أن يصرح بأسمائهم ومن ثمّاذج ذلك مايلي:

«حدثنا من لانتهم أنه سمع من العرب من يقول: رويد نفسه...»⁽³⁰⁾

«وحدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب»⁽³¹⁾

«حدثنا بذلك من يوثق به»⁽³²⁾

27- مقدمة ابن الصلاح: 60.

28- نفسه: 63. يرتب السيوطي صيغ النقل في هذا الباب كالآتي: 1- السماع من لفظ الشيخ وله صيغ أعلاها: أملى علي وأمل. 2- وبلي ذلك سمعت. 3- وبلي ذلك أن يقول: حدثني فلان، وحدثنا فلان. الزهر: 115، 114، 113/1.

29- يقول السيوطي: "ويستحسن حدثني إذا حدث وهو وحده، وحدثنا إذا حدث وهو مع غيره". الزهر: 115/1.

30- ك: 245/1.

31- ك: 279/1.

32- ك: 316/1.

- «وحدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمرا لمنطلق»⁽³³⁾
- «وحدثني من لا أتهم، عن رجل من أهل المدينة موثوق به، أنه سمع عربيا يتكلم بمثل قولك: إن زيد لذهاب»⁽³⁴⁾
- «وحدثنا من نثق به أن بعضهم يقول...»⁽³⁵⁾
- «حدثني من أثق به أنه سمع عربيا يقول...»⁽³⁶⁾
- «حدثنا من لانتهم أنه سمعهم يقولون...»⁽³⁷⁾
- وقد يذكر من يحدث عنه مجردا عن أي وصف كقوله «حدثني من سمعهم يقولون يعني بني سعد...»⁽³⁸⁾

وقد تكون الصيغة في شكلها العام محصورة في بعض العرب دون تحديددهم بالذات نحو «حدثنا بعض العرب، أن رجلا من بني أسد قال يوم جيلة واستقبله بغير أعور فتطير منه، فقال: يا بني أسد أعور وذا ناب»⁽³⁹⁾

أما الصيغة الخاصة، فهي صيغة صريحة يذكر فيها من يحدث عنهم صراحة، والأشخاص الذين ورد ذكرهم ارتباطا بهذه الصيغة هم: يونس بن حبيب وتكرر نحو خمس وعشرين مرة، وأبو الخطاب وتكرر نحو سبع عشرة مرة، والخليل بن أحمد وتكرر نحو خمس مرات، وعيسى بن عمر وتكرر نحو أربع مرات، وهارون وتكرر نحو ثلاث مرات، وقد ذكر من بين هؤلاء أبو عمرو لكنه لم يذكر إلا منقولا عنه، والغالب أن يكون بصيغة "قول أبي عمرو".

33- ك: 140/2.

34- ك: 152/3.

35- ك: 336/3.

36- ك: 172/4.

37- ك: 472/4. يقول السيراقي: "وذكر أبو زيد اللغوي كالمفتخر بذلك بعد موت سيويه، قال: كل ما قال سيويه: وأخبرني الثقة فأنا أخبرته". أخبار النحويين البصريين: 42، والاقتراح للسيوطي: 36.

38- ك: 182/4.

39- ك: 343/1.

ومن نماذج هذه الصيغة الخاصة ما يلي:

- يونس: (40)

«حدثنا يونس أن العرب تنشد هذا البيت، وهو لعبد بن الطيب.»⁽⁴¹⁾

«حدثنا بذلك يونس»⁽⁴²⁾

«حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو وهو رأيه»⁽⁴³⁾

«حدثنا يونس أن العرب تقول في كلامها.»⁽⁴⁴⁾

«حدثنا يونس أن بعض العرب يقول»⁽⁴⁵⁾ «.. أن بعض العرب الموثوق بهم

يقولون...»⁽⁴⁶⁾

«حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عن يوثق به من العرب»⁽⁴⁷⁾

«.. وهو قول أبي عمرو، حدثنا به يونس عن أبي عمرو»⁽⁴⁸⁾

حدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق بعربيته

يقول:..»⁽⁴⁹⁾

«وحدثنا يونس تصديقا لقول أبي الخطاب أن العرب تقول:..»⁽⁵⁰⁾

40- وقال محمد بن يزيد أبو العباس المبرد، قال يونس بن حبيب وقد ذكر عنده سيويه: "أظن هذا الغلام يكذب على الخليل، فليل له: قد روى عنك أشياء فانظر فيها، فنظر فقال: صدق لي جمع ما قال هو قولي." أخبار النحويين البصريين للسراي: 48.

41- ك: 156، 155/1.

42- ك: 146/1.

43- ك: 405/1.

44- ك: 409/1.

45- ك: 213/ 2.

46- ك: 337/2.

47- ك: 83/2.

48- ك: 113، 96/2.

49- ك: 319/2.

50- ك: 358/2.

« وحدثنا يونس أن ناسا يقولون أبدا: منا ومني ومنو. »⁽⁵¹⁾

«..وهو قول أبي عمرو، وحدثنا به يونس. »⁽⁵²⁾

– أبو الخطاب :

« وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من العرب من يقال له: إليك، فيقول: إلي. »⁽⁵³⁾

« حدثنا أبو الخطاب أنه يقال للرجل المداوم على الشيء لا يفارقه ولا يقلع عنه: قد ألب فلان على كذا وكذا. »⁽⁵⁴⁾

« وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من يوثق بعربته من العرب ينشد هذا البيت »⁽⁵⁵⁾

« حدثنا بذلك أبو الخطاب عن نثق به من العرب »⁽⁵⁶⁾

« حدثنا أبو الخطاب أنه سمع العرب ينشدون هذا البيت غير منون »⁽⁵⁷⁾

– الخليل بن أحمد :

« وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربته ينشد هذا البيت وهو قول الشماخ. »⁽⁵⁸⁾

« وحدثنا الخليل أن ناسا من العرب يقولون.. »⁽⁵⁹⁾

51- ك: 410/2.

52- ك: 183، 159، 93/4، 457، 347، 337، 242، 140، 119، 101/3.

53- ك: 255، 250، 249/1.

54- ك: 326/2، 353/1.

55- ك: 111/2.

56- ك: 329، 118/2.

57- ك: 440، 412، 342، 183، 181/4، 546، 468، 424، 410، 231/3.

58- ك: 110/2.

59- ك: 413/3.

«حدثنا بذلك الخليل عن العرب»⁽⁶⁰⁾.

«حدثنا الخليل أن ناسا يقولون..»⁽⁶¹⁾

«وحدثني الخليل وهارون أن ناسا يقولون»⁽⁶²⁾

- عيسى بن عمر :

«وحدثنا عيسى أن ناسا كثيرا يقرءونها: (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم

الظالمون)»⁽⁶³⁾

«حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس»⁽⁶⁴⁾

«حدثنا بذلك عيسى»⁽⁶⁵⁾

- هارون :

«وحدثنا هارون أن بعضهم قرأ..»⁽⁶⁶⁾

«وحدثني الخليل وهارون أن ناسا يقولون..»⁽⁶⁷⁾

«وحدثنا هارون أن ناسا، وهم الكوفيون يقرءونها: ثم لنترعن من كل شيعة

أيهم أشد على الرحمن عتيا، وهي لغة جيدة.»⁽⁶⁸⁾

وفي نهاية هذه المعطيات لا بد من إبداء الملاحظتين الآتيتين:

60- ك: 169، 115/4.

61- ك: 200/4.

62- ك: 444/4.

63- ك: 392/2.

64- ك: 159/4.

65- ك: 319/2، 545/3.

66- ك: 467/4.

67- ك: 444/4.

68- ك: 399/2.

أ - أن سيويه يركز على الحدث بالخبر لا على من يحدث عنه وهو العربي الذي يعتبر مصدر الكلم لأن «العربي الذي يحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة، نعم تشترط في راوي ذلك، وكثيرا ما يقع في الكتاب وغيره: حدثني من لا أهتم، ومن أثق به، وينبغي الاكتفاء بذلك وعدم التوقف في القبول ويحتمل المنع»⁽⁶⁹⁾

ب - أن هذه الصيغة غالبا ما تلبس التعبيرات التي فيها أدنى إشكال في فهمها أو لبعض الغرابة بالنظر إلى باقي الكلم العربي ولذا يحرص سيويه على أن يثبتها عن مصادر هذا الكلام وهم العرب وذلك بطرق متباينة.

فما وجه التلاقي بين ما ورد في الدراسات الحديثة وما ورد في الكتاب؟ أو بعبارة أخرى، كيف استفاد سيويه من مصطلح المحدثين؟
الظاهر أنه استفاد من جانبين:

1- من المادة اللغوية الأصلية للمصطلح.

2- من المنهج الذي اعتمده المحدثون لا في كيفية تطبيق هذا المنهج الذي من الطبيعي أن يختلف تبعا لاختلاف موضوع المنهج فموضوعه في علم الحديث متن الحديث وسنده وموضوعه في الدراسة اللغوية متن اللغة وسندها.

وبعد الذي تقدم من معطيات أخلص إلى الاستنتاج الآتية:

لكن قبل تسطير الاستنتاجات وجب أن أشير إلى المقررات الآتية:

- إن الكلام حول المصطلحات التي تخيرتها⁽⁷⁰⁾ نموذجاً لإثبات التداخل بين مصطلح الحديث ومصطلح سيويه يقوم على الإحصاء التام لمصطلح الكتاب⁽⁷¹⁾، وراعى الاستنتاج بدوره كل ما يثيره المصطلح من معنى أو معان حسب مواضع وروده المختلفة في الكتاب.

69- الاقتراح للسيوطي: 36.

70- من هذه المصطلحات: شاذ منكر، بلغ، زعم..

71- انظر المصطلح في كتاب سيويه، فهرسة وتصنيف لصاحب هذه الكلمة، وهو جزء من بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا (مرفون) ..

- وإن اكتفيت بمصطلحين نموذجاً لتوضيح ما أمكن استنتاجه بواسطتهما، إلا أن ما استنتج يغلب على كل المصطلحات التي لها صلة بالموضوع.

4 - الاستنتاجات

1.4. إن المنهج منهج المحدثين والتطبيق تطبيق اللغويين أخضعوه لمقتضيات الممارسة، اللغوية، ولذلك لم يكن من الضروري أن تتفق مصطلحات سيبويه مع مصطلحات المحدثين بل يكفي اتفاق المنهجين فقط⁽⁷²⁾، ويكون في النتيجة، الحديث عن أثر المرجعية الحديثة في مصطلح الكتاب معناه تتبع المصطلحات الوافدة من علم الحديث إلى علم النحو مع إدراك أوجه التغير التي لحقتها بسبب تغير الأطر النظرية والمنهجية الخاصة بها، لأن المصطلحات، كما هو معلوم، تتغير مضامينها بتغير أنسقتها النظرية والمنهجية وإن ظلت واحدة في الصورة اللفظية.

2.4. يبدو للوهلة الأولى أن أكثر الألفاظ والعبارات الخاصة بالرواية عند سيبويه ليست موثقة ويظهر فيها نوع من التفاضل في توثيق الرواية حيث يلقي هذه العبارات والألفاظ دون نسبتها لقائل معلوم، إلا أن بعض المهتمين بسيبويه من قريب أو بعيد حاولوا توثيق بعض هذه الصيغ واجتهدوا في تحديد رواتها ومصادرها⁽⁷³⁾، ومثال على ذلك هذا الكلام الذي أورده السيوطي: «قال أبو المنهال: أئمة البصرة في النحو وكلام العرب ثلاثة: أبو عمرو ابن العلاء، وهو أول من وضع أبواب النحو، ويونس بن حبيب، وأبو زيد الأنصاري، وهو أوثق هؤلاء كلهم وأكثرهم سماعاً من فصحاء العرب، سمعته يقول: ما أقول: قالت العرب إلا إذا سمعته من عجز هوازن، وفي رواية أخرى: إلا إذا سمعته من هؤلاء: بكر بن هوازن وبني كلاب وبني هلال أو

72- التراكيب غير الصحيحة في الكتاب ص: 42.

73- لابد من الإشادة هنا بما فعلته الباحثة السعودية الدكتورة صالحة راشد غنيم آل غنيم في كتابها: اللهجات في الكتاب لسبويه أصواتاً وبنية. التي سعت إلى توثيق المتن الغوي في الكتاب والذي خصصته لدراسة ما يتصل بالمفردات دون التراكيب (ص10).

من عالية السفلة أو من سافلة العالية، وإلا لم أقل : قالت العرب»⁽⁷⁴⁾، وزاد في الزهر «قال: وعرضت قوله على الأخفش صاحب الخليل وسيويه في النحو، فجعل يقول: قال يونس: حدثني الثقة عن العرب، فقلت له: من الثقة؟ قال أبو زيد، فقلت له ما لك لا تسميه؟ قال: هو حي بعد، فأنا لا أسميه.»⁽⁷⁵⁾

ونقل أبو الطيب اللغوي: «قال أبو حاتم عن أبي زيد: كان سيويه يأتي مجلسي وله ذؤابتان، قال: فإذا سمعته يقول: حدثني من أثق بعربيته، فإنما يريدني.»⁽⁷⁶⁾ وأخلص من هذا إلى أن من أهم ما يمكن أن يسدى للكتاب من أعمال، إعادة توثيق المروي منه بدءا بالبناء على ما وثق منه.

3.4. أن أهم ما يمكن وضعه في عين الاعتبار-ارتباطا بما سبق- أن صيغ الرواية عند سيويه متفاوتة، فمنها ما هو بين مستعلن كما هو الأمر مع النحاة واللغويين الذين وردت أسماءهم وعلى رأسهم الخليل «مفتاح العلوم ومصرفها»⁽⁷⁷⁾، ومنها ما هو مبهم نحو: (قال ناس كثير) و(من العرب من يقول..) و(بعض العرب يقول...) و(قد سمعناهم يقولون...) إلخ.⁽⁷⁸⁾

4.4. أن المصطلحات الخاصة بالرواية تفيد أن سيويه كان يأخذ عن مصادر الأخذ شفاهيا في الغالب ، وآية ذلك التعابير: (سألته، سمع، أخبر.. إلخ).

5.4. إن حضور شخصية سيويه في الرواية والنقل ماثلة بثقل يبين عن ذلك كثير من العبارات التي تنوه إلى كونه معنيا برواية اللغة متنا وبالنحو دراية، ومخالطته الأعراب الذين كانوا في الأغلب مصدر هذه الرواية ومن ذلك العبارات: (ولا نعلم

74- الاقتراح للسيوطي، ص116، والزهر: 1/142، 143.

75- الزهر: 1/118، 119.

76- مراتب النحوين لأبي الطيب اللغوي، ص74، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2 (1974).

77- نفسه، ص55.

78- اللهجات في الكتاب لسيويه، أصواتا وبنية. صاحبة راشد غنيم آل غنيم دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع جدة. ط1 (1985).

في الكلام: 4/256، 261، 262)، و(ليس في الكلام شيء على كذا: 4/255، 257..)، و(ذلك قول العرب سمعناه منهم: 1/412) ⁽⁷⁹⁾، ..، وكأننا بسيويه يتكلم في بيئة يحس بنفسه معروف الحال من حيث الوثاقة والعدالة، قال الأعلام: «وسيويه غير متهم رحمه الله فيما نقله ورواه عن العرب» ⁽⁸⁰⁾. ولم يتفرد سيويه بهذه الخلة وحده وإنما كانت ميسما طبع النحاة أو أغلبهم في هذا المرحلة حيث كانوا يجمعون بين الرواية والدراية أو الجمع والتفريد، وهي خاصية لازمت النحو والنحاة إلى حدود الطبقة الرابعة وهي التي ينتسب إليها سيويه حسب تصنيف أبي سعيد السيرافي في أخبار النحويين ⁽⁸¹⁾، ثم ما لبثت الدراسة النحوية بعد ذلك بقليل أن تجمدت على الاشتغال بالقاعدة حتى شط بها هذا الاشتغال، في كثير من الأحيان، عن المقصد من النحو وأهدافه، وذلك بفعل عوامل معروفة وغير معروفة لا سبيل للخوض فيها.

6.4. إن المنظومة الاصطلاحية النحوية لدى سيويه محملة في كثير من جوانبها بالمضمون الأخلاقي ذي البعد الديني تشهد بذلك ألفاظ مثل: قبيح، جائز، غير جائز، كذب، مستقيم.. وهو شيء غير مستغرب، لأن العلوم العربية الإسلامية كلها كانت موجهة بسائق من الدين ودائرة في فلكه ومحكومة بمقاصده وغاياته، وكانت لغة مصدريه مهيمنة على سائر اللغات ومقدمة عليها.

7.4. لطالما شكا الدارسون من صعوبة الكتاب ومن لغته ومصطلحه، وأعتقد أن كثيرا من وجوه هذه الصعوبة مردها إلى خصوصية في المنهج والنظر فهو كما قال الشاطبي "يتعلم منه النظر والتفتيش"، والمراد بذلك أن سيويه وإن تكلم في النحو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر

79- الاقتراح، ص 36.

80- النكت للأعلام الشنمري، ص 178، ت رشيد بلحبيب.

81- أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص 37، ت طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ط1 (1955).

فيه على بيان أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به، حتى احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ في المعاني⁽⁸²⁾.

وإذا كان الشاطبي اشترط فيمن يتعاطى للمقاصد أن يكون ريان في علوم الشريعة، فإن المتعاطي للكتاب، قياساً على ذلك، يجب أن يكون ريان في علوم اللغة العربية بمعناها الواسع من نحو وصرف وبلاغة وشعر وفقه لغة وكذا بالعلوم المتداخلة مع ذلك في المنهج وغيره كعلم الحديث ومنهجه وطرق الفقهاء في استنباطهم وأقيستهم وموازناتهم.

وعلى كل حال فإن أثر المصطلح الحديثي في مصطلح الكتاب لا يمثل إلا وجهاً من وجوه التداخل المعقدة بين مختلف العلوم العربية الإسلامية وقد أقر العلماء قديماً وحديثاً مشروعية «تفاعل العلوم بعضها مع بعض، وتشابك العلاقات بينها، فالمباحث الكلامية تتفاعل مع المباحث اللغوية والبلاغية والفلسفية، كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية والأصولية، وهكذا. وقد ساهم هذا التفاعل في إثراء العلوم والفنون بعضها لبعض وفي توجيه بعضها مسار البعض الآخر، بل أدى ذلك التفاعل إلى امتزاج مصطلحات العلم الواحد بمصطلحات غيره من العلوم إلى حد أن تبدو بعض الإشكالات المعرفية التي يولدها هذا العلم كما لو كانت تنتسب إلى الإشكالات المعرفية التي تدخل في علم غيره، وخير شاهد على ذلك ما نجده من اختلاط التصورات الفلسفية بالمفاهيم الكلامية، واختلاطها بالمعاني الصوفية، ومن امتزاج مصطلحات الجدل بمصطلحات جل العلوم الإسلامية مثل الفقه وعلم الكلام والنحو والبلاغة. ولم يقف هذا التفاعل عند حدود انتقال علوم الآلة إلى علوم

82- المصطلح الصرفي، مميزات التذكير والتأنيث، لعصام نور الدين، ص 160، 161، دار الكتاب العالمي، مكتبة المدرسة، ط1 (1988)، وانظر أيضاً ما يحتمل الشعر من الضرورة لأبي سعيد السيرافي، ت الدكتور عوض بن حمد القوزي مطابع دار المعارف ط2 (1991).

المقاصد، بل تعدى ذلك إلى انتقال علوم المقاصد ذاتها إلى علوم الآلة كتخريج الآلة النحوية على مقتضى أحكام التصوف»⁽⁸³⁾.

83- تجديد المنهج في تقويم التراث. الدكتور طه عبد الرحمن ، ص 91 ، المركز الثقافي العربي ط(1994).